Route Educational and Social Science Journal ISSN: 2148-5518

Volume 5(8), June 2018

Article History		
Received/Geliş	*Accepted/ Kabul*	*Available Online / Yayınlanma*
29 /5/2018	5 /6/2018	10 /6/2018

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

أستاذ النحو والصرف المساعد/ جامعة تبوك / المملكة العربية السعودية

الملخص

يهدفُ هذا البحث إلى التعريف بـ(المعنى النحويّ الدلاليّ) وبيانِهِ، وإبراز فاعليتِهِ في استخلاصِ الأحكامِ النقديةِ من الشِّعْرِ العربيِّ تطبيقاً على أقسامِ الشِّعْرِ عند ابنِ قُتيبةَ الدِّينَوَريِّ التي ذكرها في مطلعِ كتابِهِ (الشِّعر والشُّعَرَاء) ، حيث إنّه جعل الشعرَ أربعة أضْرُبٍ : (ضربٌ منه حسُنَ لفظُه وجاد معناه ، وضربٌ منه حسُنَ لفظُه وحَلَا ، وإذا أنت فتَّشتَه لم تجد هناك فائدةً في المعنى ، وضربٌ منه جاد معناه وقصُرت ألفاظهُ عنه ، وضربٌ منه تأخّر معناه ، وتأخر لفظُهُ). فما عِلّةُ التفاوتِ بين أضْرُبِ الشعرِ التي حدّدَها ابنُ قُتيبة ؟ وما مدى فاعلية المعنى النحويّ الدلاليّ في بيانِ أسباب هذا التفَاوُتِ ؟ فهذه الأسئلة ونحوها ما سيقوم البحث بالإجابة عنها في طيّاتِهِ من خلال مباحثه ومطالبه . وتنبعُ أهميةُ هذا الموضوع من كونِهِ يمزُجُ بين الدرْسِ النحويّ ، والدرس الأدبي النقديّ؛ إذ إنّه يمثّلُ أداةً حيويّةً من أدواتِ نقد الشعر ، كما أنّه يعمل على تطويرِ الذائقةِ النقديةِ للأدباء النابعة من أدواتِ النحْوِ الدلاليّ .

Abstract

This study aims at identifying the Syntactic-Semantic meaning, highlighting its effectiveness in inferring Critical judgments from Arab Poetry as applied to Ibn Qutaiba Addenawari's types of poetry which he mentioned at the onset of his book (Poetry and Poets). Ibn Qutaiba has divided poetry into four types. They are : (the type in which both its articulation and meaning are smooth and amusing, the type which has smooth entertaining articulation but no worthy meaning is inherent in its lines, the type that comprises entertaining meaning but its articulation is dull, and the type in which both the articulation and meaning are blunt. What is the justification Ibn Qutaiba has for the divergence he has pointed out among the types of poetry? To what extent is the lexical-semantic meaning effective in accounting for this divergence? These questions and others will hopefully be answered within the sections and subsections of the present study. The importance of this study stems from the fact that it blends the syntactic theme with the literary critical theme as it represents an effective tool in poetry criticism, and as it seeks to enhance the critical taste facilitated by the syntactic-semantic tools in the literary scholar.

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

سبب الاختيار:

سبب اختياري لهذا هو أنّه يقع في إطار توصيات الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، في كتابه (النحو والدلالة) فقد حثّ فيه الباحثين على ضرورة بيان فاعلية المعنى النحويّ الدلاليّ في شرح النصوص الشعرية وتفسير تراكيبها، أي: ضرورة العودة إلى النصوص اللغوية الحيّة، والعمل من خلالها على شرح المعنى النحويّ الدلاليّ فيها؛ لبيان قيمة ذلك في الوصول للأحكام النقدية الموضوعيّة. وهذا ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، وتطبيقه على أقسام الشعر عند ابن قتيبة؛ إذ إنّه لم يُعلل لآرائه النقدية حول ما اختاره من نماذج شعريّة إلّا قليلاً.

فرضية البحث:

يعتقد الباحث أنّ ابنَ قتيبة قد استبطَنَ – دون أن يشعر – نظريةَ النحو الدلالي في تقسيمه الشعرَ إلى أضرُبٍ أربعة، أوردها في مطلع كتابه (الشعر والشعراء)[1] ولكنه لم يُصرِّح بشيء من ذلك. فمدارُ التفَاوت بين هذه الأضرب يَكْمُنُ في مدى قوّة التفاعل بين الوظيفة النحويّة وبين المعنى الدلالي المعجمي للمفردة التي شغلت تلك الوظيفة. وهذا ما تناوله البحث في مبحثه الثاني؛ إذ أخضعنا أمثلةً مما استشهد به ابنُ قتيبة من الشِّعر للتحليل النحويّ الدلاليّ؛ لبيان مدى تأثير ذلك في ما استصدره ابن قتيبة من أحكامٍ نقدية. وتنبعُ أهميةُ هذا البحثِ من كونِهِ يمثّلُ أداةً من أدواتِ تطويرِ الذائقةِ النقديةِ للأدباءِ، ومن ثَمّ النهوضُ بالمجتمعاتِ العربيةِ فنيّاً وجماليّاً وذوقيّاً.

هيكل البحث:

ويظهر من عنوان هذا البحث إنّه ذو شِقَّينِ: شِقٌّ نظريٌّ، وآخرُ تطبيقيٌّ، ولهذا جاءت هيكلته تحت مبحثين، يحتوي كل مبحثٍ منهما على عِدةِ مطالب . فكان المبحث الأول تحت عنوان (المعنى النحوي الدلالي) وجاءت تحته مطلبان: مطلبٌ في تعريفِ المعنى النحوي الدلالي، ومطلبٌ يشملُ نماذجَ توضيحيّةً لفكرة النحو الدلالي .أمّا المبحثُ الثاني، فخصصته لتطبيق نظرية النحو الدلالي على أضرب الشعر عند ابن قتيبة، وقد جاء مشتملاً على مدخلٍ وأربعة مطالب، الأول: عن الضرب الأول الذي (حسُنَ لفظُه وجاد معناه) والثاني : عن الضرب الثاني الذي (حسُنَ لفظُه وحَلَا، وإذا أنت فتَّشتَه لم تجد هناك فائدةً في المعنى) والثالث: عن الضرب الثالث الذي (جاد معناه وقصُرت ألفاظهُ عنه) والرابع: عن الضرب الرابع الذي (تأخّر معناه، وتأخر لفظُهُ) ثم خُتم البحث بخاتمةٍ تحوي أهمّ ما وصل إليه من النتائج والتوصيات .

1 – الشعر والشعراء. ابنُ قتيبة. ت/ د. أحمد محمد شاكر. دار المعارف. القاهرة (ب/ت): 64/1

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

المبحث الأوّل : المعنى النحوي الدلالي

المطلب الأوّل : تعريف المعنى النحويّ الدلاليّ:

المقصود بالمعنى النحوي–الدلالي: ذاك المعنى الذي يتولّد من التفاعل القائم المستمر بين الوظيفة النحوية والدلالة المعجمية للمفرد الذي يشغلُ هذه الوظيفة. ويشكّل هذا التفاعل بينهما– مع الموقف المعيَّن– المعنى الدلالي للجملة كلِّها. والجملةُ هي الغاية الأولى لكلّ نظامٍ نحويٍّ؛ إذ يعمل على كشف تركيبها، ويحاول أن يربط بين الصورة المنطوقةِ لها وبين المعنى المراد منها من خلال النظام العقلي الذي يحكمها[1]. فعندما يتفاعلُ اللفظُ المعيّن مع المعنى النحويّ من فاعليةٍ أو مفعوليةٍ أو حاليةٍ ... إلخ فإنّ هذا اللفظ إذا كان فاعلاً مثلاً، فإنّه يكسب معنى جديداً لا يكسبه لفظٌ آخر في الوظيفة النحويّة نفسِها، كما أنّ هذا المعنى نفسَه يختلفُ باختلاف الفعلِ الذي يكون ذاك اللفظ فاعلاً له، وباختلاف السياق النصيّ الذي يكون فيه. وقد كان النحوُ العربيُّ، منذ نشأته الأولى، مهتماً بالمعنى، يعتدُّ به وبدوره في تقعيد القواعد النحوية. فسيبويه – قبلاً – قد أشار في مطلع كتابه إلى أهمية العلاقة بين المعاني النحوية والمفردات؛ وذلك في باب سمّاه (الاستقامة من الكلام والإحالة)2 فقال عن الكلام: (فمنه مستقيم حسنٌ، ومُحَالٌ، ومستقيمٌ كَذِبٌ، ومستقيم قبيح، وما هو مُحالٌ كَذِبٌ)

ومن خلال هذا الباب، يرى الدكتور محمد حماسة أنّ سيبويه قد بذر البذرة الأولى للنظرية النحوية الدلالية، وهذا ما اشتمل عليه الفصل الثاني من كتابه (النحو والدلالة)[3] قال : وهذه التقسيمات تدور حول الاستقامة والإحالة. فالكلام عند سيبويه، وهو هنا بمعنى الجُمَل، قسمان: أحدهما (مُستقيم) والآخر (مُحال) وتحت كلّ منهما فروع. وسيبويه لم يُعرِّف من هذه الأقسام إلا (المحال) و(المستقيم القبيح) واعتمد على الأمثلة وحدها في تحديد ما يريده بالمصطلحات الأخرى. ونستطيع أن نقول إنّ المقصود من (الكلام المستقيم) بناءً على الأمثلة التي عرضها، وبناءً على تعريفه للمستقيم القبيح – هو الكلام المستقيم استقامةً نحويةً ودلاليةً، فالكلام المستقيم نحوياً تتوزع استقامته على ثلاثة أنواع، هي : المستقيم الحسن، والمستقيم الكَذِب، والمستقيم القبيح. فكلّ جملةٍ صحيحة نحوياً، تُعدُّ جملةً مستقيمةً، ولكنّ الحكم على هذه الاستقامة بالحُسْن أو الكذبِ يتعلقُ بالمعنى الذي تفيدهُ عناصر الجملة عندما تترابط نحوياً[4]. وما مُراد النحاةِ من الجُمل التي يمثلون بها لتقعيد القواعد النحوية – إلّا إبانة التعلّق الحادث بين كلمات تلك الجُملة، غيرَ متجاهلين لأهميّة التوافق بين دلالة كلماتها وبين الوظائف النحوية التي تشغلُها. وهذا ما عناه عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم، فلا (نظمَ في الكَلِمِ ولا ترتيبَ، حتّى يُعلّقُ

[1] - انظر: النحو والدلالة. د. محمد حماسة عبد اللطيف. دار الشروق. القاهرة. الطبعة الأولى 2000م. ص: 19
[2] - الكتاب. سيبويه. ت/ عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الثالثة1988م، 25:1
[3] - ص:65
[4] - السابق:66

بعضُها ببعض، ويُبنى بعضُها على بعض، وتُجعلُ هذه بسببٍ من تلك)[1]. ومن هنا تظهر لنا أهميّة الألفاظ– من جهةِ دلالتها– وأهمية حُسْنِ اختيارها في البناء النحوي للجُملة في اللغة، فلا مزيّة للألفاظ وحدها في بناء الجُملة دون النظر إلى المعنى النحويّ الدلاليّ.

ويتضح تعريف المعنى النحويّ الدلاليّ بصورة أكبر، بالعَوْدِ إلى تقسيمات سيبويه للكلام؛ فنجد أنّ (المستقيم الحسن) كما أسلفنا هو الكلام المستقيم استقامةً نحويةً ودلاليةً؛ أي : الكلام الذي توافقت فيه الوظائف النحوية في علاقتها مع دلالة المفردات التي شغلتها. أمّا (المستقيم القبيح) الذي عرّفه سيبويه بـ (أنْ تضع اللفظ في غير موضعه) ومثّل له بقوله (قد زيداً رأيت) فهو مستقيمٌ من جهة تواؤم الوظائف النحوية مع دلالة المفردات، فتوافقت فيه عناصر الاختيار، وهو قبيحٌ من جِهةِ أنّ بعض هذه العناصر لم تُوضع الوضع الصحيح الذي يُجوِّزه نظام اللغة العربية؛ فجاءت الصورة المنطوقة وقد اختلّ بها شرط الورود النحويّ بحيث دخلت (قد) على (الاسم) وهذا تركيبٌ غيرُ مسموح به في نظام العربية. فقد تحققت استقامة الدلالة هنا، غير أنّ النظام النحوي للجملة قد أصابه بعضُ الخلل، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الخللَ أو القبحَ أمرٌ لفظيٌّ وليس خللاً معنويّاً. وأمّا (المستقيم الكذب) الذي مثّل له سيبويه بـ (حملتُ الجبلَ) فالكذبُ فيه ليس أخلاقيّاً، وإنّما هو كذبٌ دلاليّ[2]، تمثّل في علاقة الفعل والفاعل من حيثُ هي (فعلٌ وفاعل) أي: من حيث هي صيغةٌ نحويةٌ ومدلولٌ معاً بالجبلِ من حيثُ هو المفعول به؛ فالفعل والفاعل (حملتُ) ينسجمان في علاقة نحوية دلالية سليمة؛ إذ إنهما من حقلين دلاليْين منسجمَين، بيد أنّ المفعول به (الجبل) ليس من الحقول الدلالية التي تتناسب مع الفعل (حمل) وفاعله المتمثّل في (الإنسان). ومن هنا جاء حكم سيبويه على هذه الجملة بالكَذِب. وهكذا صنعَ ابنُ قتيبة عند ذكره للشاعر مهلهِل بن ربيعة ، فقال وهو أحد الشُّعراء الكَذَبة[3] لقوله :

ولولا الريحُ أُسمِعَ أهلُ حَجْرٍ صَلِيلَ البِّيضِ تُقْرَعُ بالذُّكُورِ

وقد قيل: إنه أكذب بيت قالته العرب؛ فبين حَجْر وهي قصبة اليمامة وبين مكان الوقعة عشرة أيام، وكان منزل الشاعر على شاطئ الفرات. فهذا الحُكم مردُّه أيضاً إلى عدم التناسب بين حقلَيْ الفعل والفاعل المحذوف (أُسْمِعَ) من جهة، والمفعول به الأوّل (أهلُ) الذي أصبح نائبَ فاعلٍ بعد حذف الفاعل، والمفعول به الثاني (صَلِيلَ) من جِهة بُعدِ مسافة المفعول الأوّل من مكان الوَقْعَة التي حكى عنها الشاعر. فالعلاقات النحوية من حيث هي علاقات صحيحة في هذا البيت، وغير ممنوعة في عُرْف العربية، وليس فيها قُبح ممّا أشار إليه سيبويه، وإنّما تمثّلَ الخللُ في التفاعل بين الوظائف النحوية بعلاقاتها وما يمثّلُها من المفردات بدلالاتها .

وأمّا الكلام المحال، فقد عرّفه سيبويه بـ (أنْ تنقُضَ أولَ كلامِكَ بآخره) نحو قولك: (أتيتُكَ غداً) فهو من جهة التركيب النحويّ وترتيب الوظائف النحوية لا عيبَ فيه؛ فهو (فعل حاضر + فاعل يتناسب مع الحقل الدلاليّ للفعل + مفعول به + ظرف زمان) فالفعل والفاعل والمفعول به كلُّها تتجانسُ من جهةِ حقولِها الدلاليّة ومن جهةِ معانيها النحويّة، غيرَ أنّ الإحالةَ جاءت من كسر الاختيار في المستوى

[1] - دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. بعناية محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي. القاهرة (ب/ت) ص: 55

[2] - النحو والدلالة : 73

[3] - انظر: الشعر والشعراء : 297/1

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

المنطوق؛ حيثُ اختِيرَ ظرفُ زمانٍ وهو (غداً) – ودلالته الأوّلية المستقبل – مع الفعل الماضي (أتى) وهو يدلُّ بهذه الصيغة على حُدُوث الإتيان، ولذلك صار تقييد زمن الإتيان– الذي حدث فعلاً– بالظرفِ الدَّالّ على المستقبلِ نقضاً أدّى إلى أن صار الكلامُ مُحالاً؛ لأنّ صيغة الماضي (أتى) في هذا التمثيل تفيدُ أنّه وقعَ، وتقييده بالظرف المستقبَل (غداً) تفيد أنّه لم يقعْ بعدُ1. وقال أبو الحسن السيرافي: (وأمّا المحال فهو ما لا يصِحُّ له معنى، ولا يجوز أن تقول فيه صدق ولا كذب؛ لأنّه ليس له معنى)2

والمحالُ الكَذِبُ من الكلام، لم يُعرّفه سيبويه، ولكنّه مثّل له بأنْ تقول (سوفَ أشربُ ماءَ البحرِ أمسِ) فدخله الكذب من ناحية وقوع الفعلِ (أشربُ) المسند للإنسان – على المفعول به (ماءَ البحرِ) الذي ليس من استطاعةِ الإنسان أن يفعله؛ لكثرته وملوحته. ودخلته الإحالة من كسر الاختيار في المستوى المنطوق؛ حيثُ اختِيرَ ظرفُ زمانٍ وهو (أمسِ)– ودلالته الأوّلية الماضي– مع الفعل الحاضر (أشربُ) الداخل عليه حرف التنفيس (سوفَ) وهو يدلُّ بهذه الصيغة على أنّ الحدث لم يقع بعدُ، ولذلك صار تقييد زمن الشُّرب– الذي لم يقع بعدُ– بالظرفِ الدَّالّ على الماضي نقضاً أدّى إلى أن صار الكلامُ مُحالاً. فاجتمع في المثال الإحالةُ والكذب.

وهنا ينبغي التأكيد على أنّ سيبويه يُعطي الاختيار من المفردات أو من الحقول الدلالية المناسِبة التي تقبل التواؤم والاستجابة أهميّةً كبرى، لا تقل عن اهتمامه بقضية استواء النظام النحويّ؛ فليس النظامُ النحويّ نظاماً مُعَدَّاً للكلمات الهُرائية أو للفراغ، ولكنّه مُعدٌّ لأن تتحقق في علاقاته المفردات الملائمة بدلالاتها الأوّلية متفاعلةً مع الوظائف النحويّة تفاعلاً يُكسبُها معناها المناسِب، ومن ثَمّ يتحقق به (المعنى النحويّ الدلاليّ)3

وبعد أنْ ناقش الدكتور (محمد حماسة) نصّ سيبويه السابق، خَلُص لعدة نقاط4 يمكن أن تكوّن المرتكز الأساس لنظرية (المعنى النحويّ – الدلالي) أشهرها:

1- إنّ كلَّ كلمةٍ مُفردة منطوقة لها دلالة أوّلية وتنتمي إلى حقلٍ دلاليّ معيّن.

2- وكل كلمة من حقلٍ دلاليٍّ معيّن تستجيب للدخول في علاقات نحوية من نوعٍ ما مع كلماتٍ من حقول دلاليةٍ أخرى، ولا تستجيب كذلك للدخول على بعضها الآخر.

3- ينضمّ إلى أمرُ (السِّياق) الذي يكون فيه الكلام، ويقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها فلكلِّ مقامٍ مقالٌ. ولا تكون للعلاقة النحوية مِيزة في ذاتها، ولا للكلمات المختارة ميزةٌ في ذاتها، ولا لوضع الكلمات المختارة في موضعها الصحيح ميزة في ذاتها كذلك ما لم يكن ذلك كلّه في سياقٍ مُلائم.

---

[1] - انظر النحو والدلالة : 84

[2] - انظر : الكتاب.سيبويه ، 26:1 (هامش رقم 1)

[3] - النحو والدلالة : 85

[4] - السابق : 88

ومثلما انشغل فِكرُ النُّحاة الأوائل بمسألة الوظائف النحوية داخل الجملة العربية تنبّهوا—كذلك— إلى الدلالات المعجمية للكلمات التي تنبني منها الجُملة؛ فبنَوا أمثلتهم النحوية من ألفاظٍ لا تتقاطع مع بعضها البعض في دلالتها المعنويّة في حالتَي الإسناد الفعلي أو الاسميّ، ومما يُشير إلى ذلك الاهتمام أنّهم صنّفوا بعض الكلمات في مجموعاتٍ لُغويّةٍ بحسب ما تؤديه من المعاني، وبحسبِ ما ينبني منها من جُمَلٍ ذات قوالبَ نحويّةٍ موحّدة أو متشابهة؛ فمن ذلك أبوابٌ بعينها في مؤلفاتهم، مثل: (أفعال القُلوب) و(أفعال المقاربة) و(أفعال الشُّروع) إلى غير ذلك من هذه المجموعات أو الحقول الدلاليّة.

المطلب الثاني: نموذج توضيحي لفكرة النحو الدلاليّ

لقد اهتمّ كثيرٌ من القدماء بفاعليّة المعنى النحوي الدلاليّ في شرح النصوص وتفسيرها، ومن هؤلاء (يحيى بن حمزة العلويّ) في كتابه (الطِّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)[1] فيقرر ذلك، ويأخذ مثالاً له قولَ الله تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)2 قال: (فلْينظر المتأمّل في هذه الآية العجيبة مع اشتمالها على العذوبة في ألفاظها المفردة، والسلاسة في تراكيبها، والنظامِ العجيب، والتأليف الأنيق ... وكيف احتوت على التنبيه على أسرارٍ عظيمةٍ، ومعانٍ فخمةٍ على أسهل نظامٍ وأيسره ...)3 فقد تحدّث، في تعليقه عليها ، عن جوانب بعضِها متعلّق بالوظائف النحوية وبعضِها متعلّق بدلالة المفردات فيها، فمن ذلك:

1- في قوله (إنّ ربَّكم اللهُ) صدَّرَ الجملة الابتدائية بـ (إنّ) المؤكِّدة؛ لتدل على إيضاح الجملة وتحقيقها في مبدأ الأمر ومطلعِهِ ..

2- وحكم على الربوبيّة بالإلهيّة؛ حيث جعل (ربّكم) مبتدأً وقوله (اللهُ) خبره، إشارةً إلى أنّ كلّ من كان موصوفاً بالربوبيّة فإنّه مستحقٌ للإلهية لا محالةَ، لأنّ استحقاقه للإلهية إنّما يكون إذا كان مُنعِماً بأصول النِّعَم. والربُّ هو المالِك، ولذا قال: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ) ولم يقلْ إنّ الله ربُّكم

3- ويُشير بهذا النظام والتأليف (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ) إلى نكتةٍ لطيفةٍ؛ وهي أنّ الإلهيّة أعمّ من الرُّبوبيّة، والربوبيّة أخصُّ منها، جرياً على قانون القياس في العربية من أنّ خبر المبتدأ لا بدّ من أنْ يكون أعمّ منه ..

4- الإضافة في قوله (ربّكم) لما له من الاختصاص بهم حيث كان مُنعِماً بالخلق والإيجاد والرحمة واللطف، فالإضافة منبِّهةٌ على هذا المعنى، ودالةٌ عليه ..

5- وفي قوله : (...ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) أتى بـ (ثُمّ) دون الفاء ليدلّ بها على التراخي، ولأنّ نظام الآية معها يكون أسلس وأسهل، والسّبْك بها أتمّ وأعجبُ ..

---

[1] - دار الكتب الخديوية. مصر. مطبعة المقتطف، 1914م ، 139:1

[2] - سورة الأعراف: 54

[3] - الطراز (139:1)

6- قوله : (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) ظاهر الآية دالٌّ على أنّ الغاشي هو الليلُ، ويُحتمل أن يكون الغاشي هو النهار، ولكنّ الحاصل ههنا أنّ الغَشْيان مخصوص بالنهار؛ والسرّ في ذلك هو أنّ النور أمرٌ وجوديّ محقَّقٌ، والظُّلمة أمرق عدميّ، وحقيقتها آيلةٌ إلى أنها عدمُ النور، والنور حقيقته آيلةٌ إلى حصول الإضاءة والإنارة، وإذا كان الأمر كذلك صحّ وصف النهار بالغشيان لظلمةِ الليل، لأنّه يطلع بالإنارة فيغشَى الليلَ بإذْهابِهِ .. ولم يقُل يُلبسُ ولا يخلِطُ الليلَ بالنهار؛ لأنّ لفظة التغشية أبلغ في الإحاطة والشمول من لفظة الإلباس والاختلاط، وهي مُؤذِنةٌ أيضاً بشدّة الاتّصال والالتحام بين الغشاوة والمغْشَى1. وفي هذه النقطة يُظهر دور النسبة والتناسب بين دلالة اللفظ من جهة حقله الدلالي وبين استعماله كأحد مكونات تركيب الجملة .

7- قوله: (خَلَقَ) جاء على صيغة الماضي، وقوله (يغشى) و (يطلبه) على صيغة المضارع، تنبيهاً على استقرار الخلْق وتحققه وثبوته بالمضِيّ، ولما كان الغشْيان والطلب يتجددان بحسب الأوقات، جاءت المضارَعة للإشعار بالتجدد والحُدوث.

8- قوله: (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ) انتصابها على العطف على (السموات) فالمعطوف يتناسب من جهة دلالته مع المعطوف عليه ؛ فكما أنّ السموات والأرض عظيمةُ الخلق، فإنّ الشمس والقمر والنجوم هي كذلك، فكلها مخلوقات عظيمة مختصّة بالإتقان العجيب والإحكام الباهر لما اشتملت عليه من المصالح العامة للخلق.

9- و(مُسَخَّرَاتٍ) انتصابه على الحال من جميع ما تقدَّم؛ أي: مُذلّلاتٌ لهذه المنافع على وفق ما قُدِّر فيها من المصالح.

10- (بِأَمْرِهِ) الجار والمجرور متعلقان بـ (مسخّرات) والباء تفيد الإلصاق هنا، أي: أنّ التسخير والإذلال ملتصقان بالأمر. وكلمة (أمْر) هنا من الحقول الدلالية التي تتناسب مع كلمة (التسخير) لأنّ التسخير فيه معنى الطاعة والانقياد ، ولذا عقّبه بذكر الأمْر لِمَا كانت الطاعةُ من لوازم الأمر وإحكامه .

11- وقوله: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) قال: لما ذكر هذه المخلوقات العظيمة، وعدّد هذه المكوّنات الباهرة، عَقَّبها بحرف التنبيه؛ إيقاظاً وحثاً على النظر، وإعلاماً بأنّها مِلكٌ له يتصرّف فيها كيف يشاء.

12- اللام في (الخلْق والأمْر) تدلان على معنى (العهْدية) فالخلق إشارةٌ إلى ما سبق من أنواع المخلوقات في الآية، والأمر إشارة إلى قوله (مسخّرات بأمره) فللقارئ سابقُ عهدٍ بها .

13- وخُتمت الآية بقوله تعالى: (تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فهي مما يدلّ على الإعظام والمدح بعِظَم الآلاء وتركم النِّعَم على الخلق. فالفعل (تبارك) يدل على النماء والزيادة ويتناسب مع إسناده لله تعالى.

ولعَمْري إنّ البلاغيَّ يحيى بنَ حمزةَ قد أصاب بسهمٍ وافرٍ في توضيح ما كان يعنيه علماء العربيّة قبله من الدور الذي يلعبه الانسجام والتلاحم بين الوظائف النحويّة وبين الدلالات المعجمية للمفردات التي تشغلها؛ في إجلاء معنى العبارة في أبهى حُلّةٍ وأنضرَ ثوبٍ . فهو هنا

[1] - السابق : 148:1

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

يُريد أن يُبيّن أسرار الفصاحة، وعجائب البلاغة، ولكنّه في الوقت ذاتِه كأنّما يُريد أن يؤسس شرحه لتلك الأسرار والعجائب على الأساسِ السليم الذي ينبني على التعليق النحويّ من قِبل أنّ الكلمة المفردة الفصيحة– لوحدها– لا تُمثّل شيئاً. وهذا الذي ذكرناه في النصّ القرآنيّ يجري منه القدْرُ الكبير في النصوص الشعرية، وهو ما سنبيّنه في المبحث الثاني من هذا البحث.

المبحث الثاني: أقسام الشِّعر عند ابن قتيبة

ابنُ قُتَيْبَةَ هو[1]: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدِّيْنَوَرَيّ، وقيل المروزيّ، النحويّ اللُّغويّ. كان فاضلاً ثِقَةً، سكن بغداد وحدّث بها عن إسحاق بن راهويه، وأبي حاتم السجستانيّ وتلك الطبقة. وروى عنه فيها مجموعة من العلماء، وصنّف في كثيرٍ من العلوم، وتصانيفه كلّها مفيدة، ومنها: (أدب الكاتب) و(غريب الحديث) و(وغريب القرآن الكريم) و(أنساب العرب) و(طبقات الشعراء).

وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومئتين للهجرة، وتوفي سنة ستٍ وسبعين ومئتين. رحمه الله. وكان أبوه فقيهاً. وقُتَيْبَة: تصغير: قِتْبَة بكسر القاف، وهي واحدة الأقتاب، والأقتاب: الأمْعاء. والدِّيْنَوَرَيّ: بكسر الدال المهملة. وبسكون الياء المثنّاة من تحتها وفتح النون والواو وبعدها راء، وهي نسبة إلى (دِينَوَرَ) وهي بلدة من بلاد الجبل عند قرميسين.

أمّا كتابه (الشعر والشعراء) فهو من مصادر الأدب الأولى، بل يُعدّ مِفتاحاً من مفاتيح النقد الأدبي، كما يُعدّ مصدراً من مصادر ترجمة الشعراء ورواية أخبارهم، فقد ترجم فيه صاحبُه للمشهورين من الشعراء الذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عزّ وجلّ. وقد صدّره بمقدمةٍ تنطوي على أبوابٍ في: أقسام الشعر، وعيوب الشعر، والإقواء، والإكفاء، والعيب في الإعراب، وأوائل الشعراء[2].

وقال عن أقسام الشِّعرِ: (تدبّرتُ الشعرَ فوجدتُه أربعة أضرُبٍ[3]: ضربٌ منه حسُنَ لفظُه وجاد معناه) و(ضربٌ منه حسُنَ لفظُه وحَلَا، وإذا أنت فتَّشتَه لم تجد هناك فائدةً في المعنى) و(ضربٌ منه جاد معناه وقصُرت ألفاظهُ عنه) و(ضربٌ منه تأخّر معناه، وتأخر لفظُهُ).

فهذه الأحكام التي أطلقها ابنُ قتيبة تنحصر جميعها في عنصري: اللفظ، والمعنى. هذان العنصران هما اللذَانِ كان عليهما المعوّل في استصدار الأحكام النقدية دون غيرهما في القرون الأولى من عصور النقد الأدبي؛ قال الجاحظ: (قال بعض جهابذة الألفاظِ ونُقّاد المعاني: المعاني القائمةٌ في صدور الناسِ المتصوَّرةُ في أذهانهم، والمتخلِّجةُ في نفوسهم، والمتصلةُ بخواطرهم، والحادثةُ عن فكرهم مستورةٌ خفيّة، وبعيدةٌ

[1] - انظر: وفيات الأعيان. ابن خلكان. ت/ د. إحسان عباس. دار صادر. بيروت. لبنان. 42/3
[2] - انظر: الشعر والشعراء : 37/1
[3] - السابق : 1/ 64 ، وما بعدها .

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

وحشيّة، ومحجوبةٌ مكنونةٌ...وإنّما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيَّاها ...)[1] فالذِكْرُ والإخبارُ والاستعمالُ إنما يكون للألفاظ، أي: أنّ الألفاظ هي التي تعبّر تعبيراً صوتياً عن تلك المعاني.

وفي كلام الجاحظ هذا إشارةٌ ظاهرة إلى ما استحدثه التوليديون والتحويليون في العصر الحديث من أنّ للجملةِ المنطوق بها مستوَيَين: المستوى العميق، والمستوى السطحي؛ ويعنون بالعميق تصوّر المعاني في عقل المتكلّم، وبالسطحيّ الجانب الصوتيّ المنطوق[2]. وباستخدامنا لهذه الطريقة يمكننا الوصول إلى تحليل الأبيات التي استشهد بها ابن قتيبة– في هذا الباب– تحليلاً يمكِّنُ من انتزاع العناصر المخفية في أعماق البناء التركيبي للجمل المكونة لكل بيت شعري، فعندما ننثرُ البيتَ الشعريَّ على مستوى البُنى العميقة فيه، تظهر لدينا كافة الكلمات المكوِّنة لبناء الجملة فيه، تلك الكلمات أو بعضُها ربما كان محذوفاً أو مقدّراً أو مضمراً غيرَ ظاهر في البنية السطحية للبيت الشعري، وعندئذٍ ننظر إلى مدى ائتلاف العنصر الدلالي في هذه الكلمات مع الوظيفة النحوية التي تشغلها، ومن هنا يظهر جلياً المعنى النحوي الدلالي في تراكيب البيت، ومن ثَمَّ يتجلى الحُكم النقدي الذي يمكن أن يُصدره الناقد على النص الشعري. والآن نريد أنْ نسلّط الضوء على ما أطلقه ابنُ قتيبة من أحكامٍ، وذلك من خلال منطلقات المعنى النحوي الدلالي، لنرى أثر ذلك على استصدار تلك الأحكام. وسنأخذُ من كلّ ضربٍ نموذجاً واحداً ليكون مثالاً على بقية النماذج.

المطلب الأوّل: (ما حَسُنَ لفظُهُ وجادَ معناه)

هذا الضرب مثّل له ابنُ قتيبة بستةِ أبياتٍ[3]؛ بيتينِ في وصف الهيئة، ولم ينسبهما لقائل، وعلّق عليهما بقوله: لم يُقَل في الهيئةِ أحسن منه. وبيتٍ لأوس بن حجر، وهو مطلع مرثيته المشهورة، وأعقبه ابنُ قتيبة بقوله: لم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا. وبيتٍ لحُميد بن ثور في وصف الكِبَر، قال عنه: لم يُقل في الكِبَر شيءٌ أحسن منه. وبيتٍ للنابغة في حُسْنِ المطالع. وبيتِ أبي ذؤيب الهُذلي الذي هو مدارِ حديثنا التالي. وقد اخترته مثالاً للتحليل هنا؛ لشُهرته وسَيَرَانِ حِكمتِهِ، ولنرى وجه الإبداع الذي نعته به الأصمعي من منظور (المعنى النحويّ الدلاليّ) والبيت هو:

والنّفْسُ رَاغِبَةٌ إذا رغّبتَهَا وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنَعُ[4]

وقد أعقبَه ابنُ قتيبة بقوله: (حدّثني الرِّياشي عن الأصمعي، قال: هذا أبدعُ بيتٍ قاله العربُ)[5]. فما وجْهُ الحُسنِ في اللفظ الذي استحسنه ابنُ قتيبة؟ وما وجْهُ الجودةِ فيما استجاده من معنى؟ نُحاولُ هنا أنْ نجد إجابةً لهذين السؤالين. فالبيت من عينيّة أبي ذؤيب (المرثية) المشهورة، قالها وقد هَلَكَ له خمسةُ بنين في عام واحدٍ، أصابهم الطاعون، ومطلعها:

أمِن المنـونِ ورَيْبِـها تتوجَّـعُ والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَن يجزَعُ

---

[1] - البيان والتبيين. الجاحظ. ت/ عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي.القاهرة.ط7/ 1998م/75:1

[2] - انظر: النحو العربي والدرس الحديث. د. عبده الراجحي. دار النهضة العربية. لبنان. بيروت (1979م) ص:136

[3] - انظر: الشعر والشعراء: 64/1

[4] - ديوان الهذليين . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة . 1965م القسم الأول . ص:1

[5] - الشعر والشعراء. 1: 64

وحتى يتسنى لنا الغوْص في مدارج هذا البيت لا بُدّ لنا من أنْ نضمّه إلى مجموعته الشعرية من أبيات القصيدة، يقول :

ولقد أرى أنّ البُكاءَ سفاهةٌ ولسوفَ يُولَعُ بالبُكا مَن يُفْجَعُ

وَلَيَأتِيَـنَّ عليـكَ يـومٌ مـرّةً يُبْكَى عليْكَ مُقنَّعاً لا تَسْـمَعُ

وتجلُدي للشامتيـن أُرِيـهُمُ أنّي لرَيْـبِ الدهْـرِ لا أتضَعْضَـعُ

والنَّفْـسُ راغِبـةٌ إذا رغّبتَهَا وإذَا تُـــرَدُّ إلى قليـــلٍ تَقْنَـعُ

فالفكرة التي تقوم عليها القصيدةُ هي الرثاء، والرثاء أصدق في العاطفة من سواه من أغراض الشعر. فبعد أنْ عبّر الشاعر عن حزنه العميق على فراق بنيه في خمسةَ عشرَ بيتاً، أو اثني عشرَ[1] ، تربّعت الحِكمة على نفسه، فعبّر عنها بهذا البيت. ولعلّ فكرةَ الحكمةِ الجليلةِ التي يحملها هذا البيت، وهي ردعُ النّفْس وزجرُها، وردُّها إلى صوابِها، هي التي جعلت ابنَ قتيبة يعتنى به، ويجعله شاهداً على الشعر الذي حسُنَ لفظُهُ، وجاد معناهُ، لِمَ لا وأنّ الشاعر قد أورد في الأبيات السابقة لهذا البيت أنّه بكى بُكاءً مُرّاً على فِراق أبنائه حتّى كادَ يشمتُ عليه الشامتون، ولكنّه ردع نفسه وزجرها وحملها على التصبُّرِ والتجلّدِ ليُرِيَ الشامتين عدم تضعضُعِهِ لمصائب الدهرِ؛ فقال: والنّفْسُ راغِبةٌ ... وبالرجوع إلى نظرية (المعنى النحويّ الدلاليّ) نجد أنّ الشاعر قد أتى إلى المعنى من الجهةِ التي هي أصحُّ لتأديتِهِ، واختارَ له اللفظ الذي هو أخصُّ به، وأكشَفُ عنه، وأتمُّ له، وأحْرَى بأنْ يُكسبُهُ نُبْلاً، ويُظهِرُ فيه مزيّةً، فشغلَه بالوظائف النحويّةِ التي تقوَى على أدائِهِ دونَ ما خللٍ في العُرْف اللُّغويّ؛ وبيانُ ذلك أنّ الشاعر في بيته هذا قد تابعَ كلامَه من مُنطلَق جديد دون أنْ يُفيدَ ترتيباً للأحداث، وهذا ما دلّ عليه حرف الاستئناف (الواو) ثمّ جاء بالجُملة الاسمية، فأسند كلمة (راغِبة) إلى كلمة (النَّفْس) وهي كلمةٌ نكرةٌ، تدلُّ على العموم، كما أنّها تجري على قانون القياس في العربية من أنّ الخبرَ لا بدّ من أنْ يكون أعمَّ من المبتدأ، والعمومُ هنا يجعل رَغْبة النفْسِ مُشْرَعةٌ لكلّ شيء، فهي مُطلقةٌ غيرُ مقيّدة. فإسنادُ النكرة إلى المعرفةِ هنا أدلّ على المعنى المنشودِ عند الشاعرِ. ثمّ إنّ كلمة (راغِبةٌ) فيها مزيّةٌ أُخرى؛ حيثُ جاءت على صيغة اسم الفاعل الذي يجري على معنى فعله المضارع ممّا يدلّ على استمراريّة الحدث دون انقطاع، أي: (والنفسُ راغِبةٌ على الدوام) ثم قيَّدَ الشاعرُ هذه الرغبة ببعض الشروط، فأعقب الجملةَ الاسميّةَ بالجملة الشرطيّة (إذَا رَغّبْتَها) ثُم حذف جواب الشرط لدلالة عبارة (النَّفس راغبة) عليه، والتقدير: (النَّفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها، فالنَّفس راغبة) والحَذْفُ هنا مؤشرٌ على جودة سَبْك العبارة؛ إذ إنّه لو ذَكَرَ جواب الشرط مع تقدُّمِ ما يدلُّ عليه، لكانت العبارة من الركاكة بمكان. كما أنّ هناك لطيفة أخرى؛ وهي إنّه اختار للشرط الأداةَ (إذا) فهي دالّةٌ على ما يَستقْبِلُ من الزمان من وقتٍ معلومٍ غيرِ مُبْهَمٍ، ومُتَضمّنةٌ في الوقت ذاته معنى الشرط، والمزْجُ بين الدّلالتين مؤشرٌ على جودةِ سبك المعنى النحويّ مع دلالة اللفظ العُرفيّة عليه. ومن هذا التفاعل والائتلاف بين الوظائف النحوية والدلالات المعجميّة للمفردات، تولّدَ المعنى الذي يحمله صدرُ البيت، وهو أنّ النفسَ البشريّة فيها شيءٌ من الدَّنَاوةِ إنْ رَغبّها صاحبُها في فعْلِ ما يشِينُها.

[1] - انظر: المفضليات. المفضل الضبي. ت/ الشيخين (أحمد شاكر، وعبد السلام هارون) دار المعارف. القاهرة.(ب/ت) المفضلية رقم:126

ثُمّ عَطَفَ الشاعرُ على جُملتَي صدرِ البيتِ جملةً شرطيةً أُخرَى، هي: (وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ) ليُكمِلَ بها فكرة البيت، وليُبيّنَ بها الحالة الثانية من حالات النفس في هذا السِّياق؛ وهي إنّك إنْ رددتَ نفسَكَ إلى ما هو قليلٌ من حصاد الدنيا ، قَنِعتْ به وأذعنتْ إليه.

وقد أحسنَ الشاعرُ هنا اختيار الأداة (إذا) من حقْلِ أدوات الشرط؛ إذ إنّها تدلّ على وقتٍ بعينه، ودلالتُها على وقتٍ معلومٍ هَيّأَ لها حُسنَ الاتصال بالفعلِ؛ فالفعلُ فيها بمنزلته في (حينَ) كأنّك قلت: الحِينَ الذي تُرغِّبُ فيه نفسَكَ تَرْغَبُ فيه، والحينَ الذي تَرُدُّها فيه تُرَدُّ فيه. وعلى هذا فإنّ الجُملَ في هذا البيت كلَّها من بابِ الكلام (المستقيم الحسن) عند سيبويه، أي: الكلام المستقيم استقامةً نحويةً ودلاليةً، مما حملَ ابنَ قتيبة على الحُكم عليه بأنّه حَسَنُ اللفظ، وجيِّد المعنى، وحملَ قبلَه الأصمعيَّ على أنْ يقولَ: هذا أبدع بيت قاله العرب.

المطلب الثاني: (ما حسُن لفظهُ وحلا ، وإذا أنت فتشتَه ، لم تجد هناك فائدةً في المعنى)

أورد ابنُ قتيبة لهذا الضرب مثلاً من عشرة أبيات، في أربع مجموعات[1]؛ المجموعة الأولى من ثلاثة أبياتٍ لم يذكر شاعرها، والثانية من بيتين للمَغْلُوط السعدي، والثالثة من بيتين لجرير، والرابعة من ثلاثة أبياتٍ لجرير كذلك. وقد اخترتُ منها المجموعة الأولى؛ لشهرة أبياتها، ولما ورد حولها من تضاربٍ بين من تناولها بالنقد والتحليل، أمثال ابنِ قتيبة، وابن جنّي، وعبد القاهر الجُرجاني، وغيرهم. وهي قول القائل:

ولمّا قَضَيْـنا من مِنًى كـلّ حاجــةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ مَن هُوَ ماسِحُ

وشُدّتْ على حُدبِ المهارِي رِحَالُنا ولم ينظرِ الغَادِي الذي هو رائحُ

أخذْنَا بأطْـرافِ الأحادِيـثِ بيْنَنَا وسالتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطِحُ

هذه الأبيات، على الرُّغم من اختلافهم في شاعرها، إلّا أنّها وجدت عناية كبيرةً عند علماء الأدب واللغة؛ فقد مثّل بها ابنُ قتيبة في هذا الباب ولم ينسبها إلى قائل بعينه، وأوردها ابنُ جنّي في خصائصه[2] دون نِسْبةٍ، وذكرها الشريف المرتضى في أماليه[3] ضمن سبعة أبيات، ونسبها بسندٍ مُتصلٍ عن ابن الأعرابي للمُضرَّب عُقبة بن كعب بن زهير، وأوردها عبدُ القاهر الجُرجاني في دلائله[4]، وفي أسرار البلاغة[5]. وقد احتفل بها كلُّ عالمٍ من هؤلاء وغيرهم على طريقته الخاصة، وحسبَ الموضع الذي يناسبهُا من مؤلفِهِ.

ذكرها ابنُ قتيبة، كما قلنا، مثالاً على الشعر الذي حسُنَ لفظُه وحلا، وإذا أنت فتّشتَه، لم تجد هناك فائدةً في المعنى، واستعان على برهنةِ رأيه فيها بأنْ حوّلها من قالب الشعر، إلى قالب النثر قائلاً: (إنْ نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولمّا قضينا أيام مِنى، واستلمنا الأركان، وعالَيْنا إبلَنَا الأنضاء، ومضى الناسُ لا ينظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطيُّ في الأبطُح) أي: أنّ هذا الكلام يحمل معانيَ عاديّةً، لا تتناسب وجمال الألفاظ في الأبيات.

---

[1] - انظر: الشعر والشعراء:1/ 66

[2] - الخصائص. ابن جني. ت/ محمد علي النجار. المكتبة العلمية (ب/ت) 218:1

[3] - أمالي المرتضى. ت/محمد أبو الفضل إبراهيم. م عيسى البابي الحلبي وشكاه الطبعة 1 ، 1954م (458:1)

[4] - دلائل الإعجاز :74

[5]- أسرار البلاغة. الجرجاني . بعناية محمود محمد شاكر .مطبعة المدني. القاهرة (ب/ت) ص: 20

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

ولعلّ ابنَ قتيبة هنا لم يُنْعِم النظر، ويُجيد التلطّف في فحصِ فكرةِ الشاعر التي تنطوي عليها بنية الأبيات. وكأنِّي بابنِ جِنّي يعنيه، ويردّ عليه حين قال: (فإنْ قلتَ: فإنّا نجِدُ من ألفاظهم ما قد نمّقُوه، وزخرفُوه، ووشّوه، ودبّجوه، ولسنا نجدُ مع ذلك تحته معنًى شريفاً، بل لا نجده قصْداً ولا مُقارِباً؛ ألا ترى إلى قوله:{ وذكر الأبيات}... فقد ترى إلى عُلوّ هذا اللفظ ومائه، وصِقالِه وتلامُحِ أنْحائِه، ومعناه مع هذا ما تُحِسُّه وتراه، إنّما هو: لمّا فرغنا من الحجّ ركبنا الطريقَ راجعِين، وتحدّثنا على ظهور الإبل!...قيل: هذا الموضعُ قد سبق إلى التعلّق به مَن لم يُنعِم النظرَ فيه، ولا رأى ما رآهُ القومُ منه، وإنّما ذلك لخفاء طبع الناظر، وخفاء غرض الناطق. وذلك أنّ قوله (كلّ حاجةٍ) يفيد منه أهلُ النسيب والرِّقّة ... ما لا يفيده غيرهم...ألا ترى أنّ من حوائج (مِنى) أشياءَ كثيرةً غيرَ ما الظاهر عليه... لأنّ منها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلّي، إلى غير ذلك مما هو تالٍ له .. وكأنّه صانَعَ عن هذا الموضع الذي أومأ إليه، وعقد غرضه عليه، بقوله في آخر البيت: * ومسّحَ بالأركانِ مَن هو ماسحُ *

أي: إنما كانت حوائجُنا التي قضيناها، وآرابنا التي أنْضَيناهَا، من هذا النحو الذي هو مسحُ الأركان وما هو لاحقٌ به، وجارٍ في القُربةِ من الله مَجراه؛ أي: لم يتعدّ هذا القدْر المذكور إلى ما يحتمله أوّل البيت من التعريض الجاري مَجرى التصريح)[1].

ثم عاد ابنُ جني إلى بيان ما في البيت الثاني (أخذنا...) من جودة المعنى وعلوّ قدْرِه: فقال: (وفي هذا ما أذكرُه؛ لتراه فتعجبَ مِمَّن عجِبَ منه ووَضَعَ من معناه؛ وذلك أنّه لو قال: (أخذنا في أحاديثنا) ونحو ذلك لكان فيه معنًى يُكبرُه أهلُ النسيب، وتعنُو له مَيْعَةُ الماضي الصليب. وذلك أنّهم قد شاع عنهم واتّسع في محاوراتهم علوُّ قدر الحديث بين الأليفَين، والفُكَاهةُ بجمعِ شملِ المتواصِلَين. فإذا كان قدْرُ الحديثِ– مُرْسَلاً– عندهم هذا، على ما ترى، فكيف به إذا قيّده بقوله (بأطراف الأحاديث) وذلك أنّ في قوله (أطراف الأحاديث) وحْياً خفيّاً، ورمزاً حُلواً؛ ألا ترى أنّه يُريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبّون، ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيّمون؛ من التعريض والتلويح، والإيماء دون التصريح، وذلك أحلَى وأدمث، وأغزلُ وأنسبُ من أن يكون مشافهةً وكَشْفاً، ومصارحةً وجهْراً، وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم، وأشدُّ تقدُّماً في نفوسِهم، من لفظهما وإنْ عذُبَ موقِعُه، وأنِقَ له مُسْتمِعُه .. فكأنّ العربَ إنّما تُحلّي ألفاظها وتدبّجُها وتَشِيها وتزخرِفُها، عنايةً بالمعاني التي وراءها، وتَوَصُّلاً بها إلى إدراك مطالبها)[2].

وهنا نلاحظ أنّ ابنَ جنّي قد بنى مُبررَ جودةِ المعنى على إجراء المقارنة بين تركيب العبارة: (أخذنا بأطراف الأحاديث) وبين عبارة، افترضها هو، قريبةً من عبارة البيت، وهي (أخذنا في أحاديثنا) أي أنّه قارن بين نصٍّ لغويٍّ حَيٍّ[3]، وبين نصٍّ لغويّ تمثيليّ؛ ليُظهر جمال معنى عبارة البيت. فالعبارة التي مثّلَ بها مُطلَقةُ المعنى، وهي على إطلاقها، كبيرةٌ في معناها، فما بالُ عبارة البيت التي قُيّدت فيها الأحاديث بـ(أطرافها) مما أضفى عليها تقدُّماً في المعنى، وعلوّاً في المكانة.

---

[1] - الخصائص 217:1

[2] - السابق: 220:1

[3] - النص اللغوي الحي هو ما يُؤخذ من الشعر أو غيره من النصوص ، خلاف النص المصنوع من جانب النحاة للتمثيل .

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

ثم جاء العالم الفذّ عبد القاهر الجرجاني ليبيّن ما في أبيات المضرَّب سابقة الذكْر من جودة المعنى، فتعرّض لذكرها في مؤلَّفَيْه العظيمَيْن: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) ففي (دلائل الإعجاز)[1] وعند حديثه، عن شطر البيت (وسالتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطِحُ) قال: ليست الغرابة بأنْ جعلَ المطيَّ في سرعة سيرِها وسُهولتِهِ كالماء يجري في الأبْطُح، فإنّ هذا شَبَهٌ معروفٌ ظاهرٌ، ولكنّ الدِّقَّةَ واللطفَ في خصوصيّةٍ أفادها بأنْ جعل (سالَ) فعلاً للأباطِحِ، ثم عَدّاه بالباءِ، بأنْ أدخلَ (الأعناق) في البيت، فقال: بأعناقِ المطيِّ، ولم يقُلْ (بالمطيّ) ولو قالَ (سالت المطيّ في الأباطِحِ) لم يكُن شيئاً.

فنلاحظ إنّ حُسنَ الاستعارة في البيت ما هو إلّا قائمٌ على المعاني النحويّة الدلالية؛ فالفعل (سَالَ) من الحقول الدلاليّة التي تتناسب مع كلمة (الأباطح) ولم يقمْ الشاعر بكسر هذا التناسُب ليقعَ له حسن الاستعارة وجمالُها فحسب، وإنّما اعتمد على الوظيفةِ النحويّةِ لحرف الجرّ (الباء) وعلى دِلالة الفعل (سَالَ) فعدّاه بالباء ليصِلَ إلى (أعناق المطيّ) ومن ثَمّ اكتست عبارته بهذا الجمال الذي لا يخفى.

ثم أطال الجرجاني في بيان ما تحمله الأبيات من معانٍ جليلةٍ في سِفْرِه: (أسرار البلاغة)[2] ومن ذلك قوله: انظُر إلى الأشعار التي أثنَوْا عليها من جهةِ الألفاظ، ووصفوها بالسلامة، ونسبُوها إلى الدّماثة، وقالوا: كأنّها الماءُ جَرَياناً، والهواءُ لُطفاً والرياضُ حُسناً...ثُمّ راجعْ فكرتَكَ، واشحذْ بصيرتَكَ، وأحْسنِ التأمّل، ودعْ عنك التجوُّز في الرأي، ثم انظرْ هل تجد لاستحسانهم وحمْدهم وثنائهم ومدحِهم مُنْصَرَفًا، إلّا إلى استعارةٍ وقعت موقعها...أو حُسْنِ ترتيبٍ تكاملَ معه البيانُ حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظِ إلى السَّمْعِ، واستقرّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأُذن، وإلّا إلى سلامةِ الكلامِ من الحشو غيرِ المفيد... وسلامتِهِ من التقصير الذي يَفْتقِرُ معه السامعُ إلى تطلُّبِ زيادةٍ بقِيتْ في نفس المتكلّم، فلمْ يُدلَّ عليها بلفظها الخاصِّ بها... وأوّل ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنّه قال:

* ولَمَّا قضَيْنَا من مِنًى كلَّ حاجةٍ *

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فُرُوضِها وسُنَنِها، من طريقٍ أمكنه أنْ يُقَصِّرَ معه اللفظَ، وهو طريق العموم؛ وما ذلك إلّا لحُسْنِ اختيار الشاعر لكلمة (كُلّ) وهو لفظٌ نكِرَةٌ دالٌّ على العموم، ثم أضافها إلى نكرةٍ أخرى وهي كلمة (حاجة) للتوسُّع في معنى العموم كذلك. ثم نبّه الشاعر بقوله :

* ومسّحَ بالأرْكانِ مَن هو ماسِحُ *

على (طواف الوداع) الذي هو آخرُ الأمر، ودليلُ المسِير الذي هو مقصوده من الشعر. وهنا إشارة إلى الفكرة التي تقوم عليها الأبيات، وهي رحلةُ المسير بعد قضاء مناسك الحجّ.

وفي صدر البيت الثاني :

* أخَذنا بأطْرافِ الأحاديثِ بيننَا *

---

[1] - انظر: دلائل الإعجاز :75

[2] - انظر: الصفحات: 24،23،22،21

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

عبّر الجرجاني عن قوّة تماسك الأبيات من جهة اللفظ والمعنى جميعاً، فقال: (فوصلَ بذكْرِ مسْحِ الأركان ما وَلِيَه من زَمِّ الرِّكابِ وركوب الرِّكْبان).

وهنا يأتي دور الوظائف النحوية في إبراز جمال المعنى في هذه الأبيات؛ فالشاعر قد ابتدَرَ أبياته بـ(لَمَّا) الظرفية (الحِينيّة) التي تختصّ بالماضي، والتي يقول عنها النُّحاة: إنّها حرفُ وجودٍ لوجود، أو وجوبٍ لوجوب[1]. فيقتضي بناءُ جملتها جُملتَينِ تَطَلّبَ وجودُ الأولى منهما وجودَ الثانية ضرورةً، أي:(لمّا قضينا حَجَّنَا، أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا) فالوصْلُ الذي عبّر به الجرجاني، يشير به إلى جواب (لمّا) ووظيفتُها النحويةُ هنا أنّها تُوجِبُ وجودَ جوَابٍ لفعلها، فكان أنْ تلاها الفعلُ الماضي (قضينا) الذي لا بُدَّ له من جوابٍ، وكان جوابُه في مطلع البيت الثاني، وهو الفعلُ الماضي (أخذْنا) مما جعل البيتين مُتماسكين في صورةٍ لفظية ومعنويّة ساحرة.

ثمّ إنّ الجرجاني يقول: (ثم دلّ بلفظة (الأطراف) على الصِّفة التي يختصُّ بها الرفاق في السفرِ من التصرّف في فنون القول وشجون الحديث، أو ما هو عادةُ المتظرّفِينَ من الإشارة والتلويحِ والرّمْز والإيماء، وأنْبَأَ بذلك عن طيب النفوسِ، وقوّة النشاط، وفضْل الاغتباط، كما توجبه أُلفةُ الأصحاب... وكما يليق بحالِ مَن وُفِّق لقضاء العبادة الشريفة ورَجَا حُسْنَ الإياب، وتنسّمَ روائحَ الأحبّة والأوطانِ، واستماع التهاني والتّحايا من الخُلّانِ والإخوان)[2] وهذا كلُّه يدللّ ويبرهن على ما يلعبه تضافر الوظائف النحوية مع دلالاتها المعجمية في إيضاحِ قيمة المعنى الجمالي الذي تحمله هذه الأبيات.

ونخلُصُ من ذلك كلِّه إلى الأسباب التي رجّح بها الجرجاني فَضْلَ معنى الأبيات مع حُسْنِ لفظها، وهي تندرجُ تحت النقاط التالية:

1- حُسْنُ ترتيبِ الألفاظ؛ وهذا يعني حُسن التفاعل بين الوظائف النحوية وبين الدلالات المعجمية للألفاظ التي شغلتها.

2- سلامةُ الكلام من الحشْوِ غير المفيد، وهذا يعني حُسْن اختيار الشاعر للمفردات من حقولها الدلالية بموافقة شروطها؛ ولذا فقد صحّت العلاقة النحوية والدلالية بينها.

3- سلامة الكلام من التقصير الذي رُبّما يشعر به المتلقي؛ وهذا يعني أنّ الشاعر قد عبّر عمّا يجيش في نفسه من معنى يتّفقُ والسياقَ الملائم، فلكلّ مقامٍ مقال.

وقد لخّصَ ابنُ طباطِبا، كذلك، فائدةَ معنى هذه الأبيات بقوله: (فإنَّ فائدةَ هَذَا الشِّعر هُوَ اسْتِشْعَارُ قائِلِهِ لفرحَةِ قُفُولِهِ إِلَى بَلَدِهِ، وسرورِهِ بالحَاجَةِ الَّتِي وَصَفَها من قَضَاءِ حَجِّهِ، وأُنْسِهِ برُفَقَائِهِ ومُحَادَثَتِهم، وَوَصفِهِ سَيْلَ الأبَاطِحِ بأعْنَاق المطِيِّ كَمَا تَسِيلُ بالمياه، فَهُوَ مَعْنًى مُسْتوفًى على قَدْر مُرَاد الشَّاعر)[3].

ولذا يمكننا أن نقول إنّ ابنَ قتيبة قد أصاب في وصفه لألفاظ الأبيات بالحُسن والجمال ، ولكنّه لم يُصِب في وصفه لها بالخُلوِّ من المعنى المفيد .

---

[1] - انظر : مغني اللبيب ، 309:1

[2] - أسرار البلاغة : 23

[3] - عيار الشعر. ت/ عباس عبد الستار .دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان .ط الثانية 2005م . ص 88

فاعلية المعنى النحوي – الدلالي في استنباط الآراء النقدية

(دراسة تطبيقية على أقسام الشعر عند ابن قتيبة)

د. التجاني إبراهيم محمد إسماعيل

المطلب الثالث: (ما جَادَ معناه وقصُرَت ألفاظُه عنه)

ومثّل ابنُ قتيبة لهذا الضرب بثلاثةِ أبياتٍ[1]؛ بيتٍ للبيد بن ربيعة، ونعته بقلّة الماء والرونق. وبيتٍ للنابغة الذبيانيّ، وقال عنه إنّ ألفاظه ليست جِياداً ولا مبيِّنة لمعناه. وبيتٍ للفرزدق تركه دون تعليق. وقد وقع اختياري هنا على بيت الفرزدق؛ لإغفال ابن قتيبة التعليق عليه، ولشهرته واستجادتِهِ عند البلاغيين. يقول الفرزدق[2]:

والشَّيْبُ يَنْهَضُ في الشَّبَابِ كَأنَّه لَيلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

والغريب في الأمر أنّ ابن قتيبةَ أورد هذا البيت في باب (ما يُستجاد من شعر جرير والفرزدق والأخطل) في مَتْنِ كتابه هذا، قال: (ويُخْتار للفرزدق قوله:

وتقولُ: كيف يَمِيلُ مثلُكَ للصِّبَا وعليكَ من سِمَةِ الكبيرِ عِذَارُ

والشّيبُ يَنْهَضُ في الشَّبَابِ كَأنَّه لَيلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ)[3]

فلا أدري كيف ضربَ ابنُ قتيبة بهذا البيت مثلاً لِمَا قَصُرت ألفاظه عن معناه من الشعر، ثم يجعلُ البيتَ ذاتَه من مُختارات شعر الفرزدق في مُؤلَّفٍ واحدٍ، دون تعليقٍ أو شرحٍ لهذا الإجراء ؟! فلعلّه استكْرَهَ في البيت شيئاً من الألفاظ، ثم طَغَى عليه الإعجاب به جُملةً حيناً آخر، فجعله من مُختار شعرِ الشاعر! أو لعلّ جودةَ المعنى في هذا البيت قد اغتفرت لسيِّء اللفظ فيه. وقد يقعُ في كلام الشاعر المُفْلِقِ اللفظُ المُسْتكرَهُ، فإنْ انعطفت عليه جَنْبَتَا الكلام غَطَّتا عُوارَه وسترتا مِن شَينِه[4].

وقد ذكر هذا البيت جملةٌ من علماء الأدب والبلاغة، ووَسَمُوه بأنّه في غاية الجمال من جهة النعوت البلاغية؛ فهذا المبرِّد يقارن بينه وبين بيت آخر للشاعر نفسه يُهجّنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير، وهو قوله :

وما مثلُهُ في الناس إلّا مُمَلَّكاً أبو أُمِّه حَيٌّ أبوه يُقارِبُه

قال : (وكأنّه لم يقع ذلك الكلام لمن يقول :

والشّيبُ يَنْهَضُ في السّوَادِ كَأنَّه لَيلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

فهذا أوضحُ معنًى، وأعْربُ لفظٍ، وأقربُ مأخذٍ)[5] وقد روى (السَّواد) بدل (الشباب).

وهذا أبو منصور الثعالبي يقول عن الفرزدق: (ومن أحسن تشبيهِهِ الذي لم يقع لأحدٍ قطُّ مثله قوله:

وَالشَّيْبُ ينْهَضُ في الشبابِ كَأنه لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ)6

---

[1] - انظر: الشعر والشعراء : 68

[2] - ديوان الفرزدق. شرح وتقديم أ. علي فاعور. دار الكتب العلمية. بيروت. لبان. ط. اللأولى:1987م، ص: 323

[3] - الشعر والشعراء:1/ 493

[4]- انظر: الكامل. المبرّد. ت/ عبد الحميد هنداوي. وزارة الأوقاف السعودية. 1998م. 78:1

[5] - السابق: 79

[6] - لباب الآداب .ت/أحمد حسن بلج . دار الكتب العلمية .بيروت.لبنان.ط الأولى:1997م، 147:1

وذكره المرزباني، ولم يزدْ على ما قاله المبرد حول البيت[1]. وذكره أبو هلال العسكري في باب (بديع التشبيه)[2] وقال إنّ الفرزدق أخذ معناه من بيهس بن عبد الحرث في الشيب:

حتى كأنّ قديمَه وحديثَه ليلٌ تلقّعَ مُدْبِرًا بنهارِ

قال: وهذا أحسن من قول بيهس سبكًا ورصفًا.

نلاحظ أنّ مجموعةً من كبار علماء اللغة والأدب والبلاغة القدماء قد أثنَوا على بيت الفرزدق، ودبّجوه بأحسن الأوصاف، غير أنّ أبا البَقَاء الدميريّ، قد عابَ هذا التشبيه الذي ورد في بيت الفرزدق، وذلك في حديثه عن بلاغة الاستعارة، قال: (ولا شكّ أنّ الاستعارة أبلغ من التشبيه، وأوقع في النفس، وانظر إلى قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)[3] وإلى ما فيه من الطلاوة، بخلاف ما إذا قيل: وشيب الرأس كالنار يشتعل، فهو أدَّعَى أنَّ حقيقة الاشتعال في الشيب دون النار، ووجه المناسبة التي حسّنت هذه الدَّعْوَى، أنّ (الشيب) لمّا كان بياضاً يأخذُ في الشَّعَر الأسود شيئًا فشيئًا إلى أن يقوَى ذلك ويشتد حتى يأتي على السواد جميعه فيذهبه، حَسُنَ ادِّعَاءُ الحقيقةِ، كما أن النَّارَ تأخذُ في الفحم شيئا فشيئا، وتدبُّ دبيبَ الشيبِ في الشَّعَر حتى تأتي على الفحم، ومن هنا عِيبَ على القائل قوله:

وَالشَيبُ يَنهَضُ في الشَّبابِ كَأَنَّهُ لَيلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

فإنّ الصِّياح، هنا، لا مناسبةَ له ولا معنى)[4].

وقياساً على كلام الدميري، فالشاعر ادَّعَى أنّ حقيقةَ الصِّياح في النهار دون وَجْهٍ مُناسبةٍ تُحسِّنُ وَجْهَ الدّعْوَى، أي: دون قرينةٍ تُسوِّقُ هذا الادّعاء.

ولذا يمكن أنْ نقول إنّ ابنَ قتيبة قد وُفِّق في الحُكْم على هذا البيت بأنّه (جادَ معناه وقصرت ألفاظه عنه) وِفقاً لما نعنيه بفاعلية المعنى النحويّ الدلاليّ في استصدار الأحكام النقدية على الشعر، وعلى غيره من النصوص الأدبية؛ فالشاعر هُنا لم يُحسن اختيار اللفظ (يصيح) من بين الحقول الدلاليّة التي تتناسب مع مدلول كلمة (النهار) وتتسق معها، فالنهارُ : يَغْشَى، ويُسفِر، وينْبَلِجُ، وما إلى ذلك من الألفاظ التي تتناسق معه وتأتلِفُ. ونقول كذلك: إنّ عبارة (يصيح بجانبيه نهارُ) وإنْ كانت صحيحةً من جهة التركيب النحويّ، إلّا إنها تُعَدُّ– على هذا الرأي– من قَبِيل الكلام (المستقيم القبيح) كما شرح سيبويه ومثّلَ. ولذا فإنّ التفاعل بين الفعل (يصيح) وبين الفاعل (نهارُ) يُعدُّ تفاعلاً ناقصاً من جهةِ عدم اتّساق الوظيفة النحوية لكلمة (نهار) مع الدلالة المعجمية لكلمة (يصيح) أي: أنّه لم يكتمل فيها المعنى النحويّ الدلاليّ .

[1] - انظر: الموشح. ت/محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط الأولى:1995م، ص 132

[2] - الصناعتين. ت/علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب. عيسى البابي وشركاه،1952م : 314

[3] - سورة مريم: 4

[4] - شرح لامية العجم. تحقيق د. عويضة. المكتبة الشاملة: 2008م ، ص:53

المطلب الرابع: (ما تأخّرَ معناه وتأخّر لفظُهُ)

أمّا هذا الضرب فقد أورد له ابنُ قتيبة مجموعة من الأبيات، بعضُها للأعشى وتركها دون تعليق، وأخرى للخليل بن أحمد، وقال إثرها: وهذا الشعر بيِّن التكلّف، رديء الصنعة. وثالثة لأبي الأسد نباتة بن عبد الله دون تعليق، وبيتينِ للمرقِّش الأكبر استهجنَ وزنهما وروِيَّهما ولفظهما ومعناهما. ويكفينا أن نُمثّل ببيت الأعشى:

وقَدْ غَدوْتُ إلى الحانوتِ يتبَعُني شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشَلٌ شَوِلُ[1]

لشُهرتِهِ وشهرةِ شاعره.

قال ابن قتيبة معلِّقاً على بيت الأعشى: (وهذه الألفاظ الأربعة في معنًى واحدٍ، وكان قد يستغني بأحدها عن جميعِها. وماذا يزيدُ هذا البيتَ أنْ كان للأعْشَى أو ينقُصُ ؟)[2]

فمن جهةِ اللفظ فإنّ ابن قتيبة يرى أنّ هذا الضَّرْبَ من الشعر في منزلةٍ أقلَّ ؛ حيث لا وجود للفظ الجميل في البيت. وكذلك من جِهةِ المعنى؛ فإنّه لا يرى معنى مُبتكَراً فيه.

فالمعنى الجيّد في رأيه: ما كان في مديحٍ أو رِثاءٍ أو زُهْدٍ أو حِكمةٍ، حسبما دلّت عليه الأبيات التي ساقها أمثلةً لما جادَ لفظُه وجادَ معناه من الشِّعر. ولعلّ هذه الآراء صادرةٌ عن ذوقه الخاص. وفي نقده للبيت لمْ يُعلّل لتأخر المعنى فيه، ولكنّه من الواضح أنّ إنكاره له كان بسبب انغماسِ الشاعرِ وصحبِهِ في اللَّهْوِ وملذَّاتِ الحياة؛ حيث إنّ فكرة البيت تتحدّث عن الحانوت الذي هو مكان لتناول المنكرات. أمّا سبب تأخر اللفظ في البيت فقد صرّح به في قوله (وهذه الألفاظ الأربعة في معنى واحدٍ، وكان قد يستغني بأحدها عن جميعِها) يقصد (مِشَلٌّ، وشَلُولٌ، وشُلْشَلٌ، وشَوِلُ) أو لعلّه رأى في هذه الألفاظ ما رآه بعضُ البلاغيين الذين عدَّوْها من التجنيس القبيح[3].

ولكن ماذا قال شُرّاح الأدب عن هذا البيت؟ قال أبو عمرو الشيباني: (والحانوت بيت الخَمَّار يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، والشَّاوِي: الذي يشوي، والمِشَلّ بكسر الميم وفتح الشين المعجمة وهو الذي قد شلّ بيده، فهو يذهب به. وكذلك الشَّلولُ. والشُّلْشُل: مثل القُلْقُل وهو المتحرِّك. وشَوِلُ: وهو الذي يحمل الشيء، يقال: شلت به وأشلته)[4].

وقال القزّاز القيرواني: (وعِيبَ على الأعشى قوله:

وقَدْ غَدوْتُ إلى الحانوتِ يتبَعُني شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشَلٌ شَوِلُ

قالوا: فهذه الألفاظ كلّها بمعنى واحدٍ، وهذا عَيْبٌ. وقال قومٌ هي مختلفةُ المعاني؛ فالمِشَلّ: السريعُ السَّوْقِ. والشَّلُولُ: الخفيفُ الذي يُسرع في حوائجهم. والشُّلْشُل: الذكيُّ. والشَّوِلُ: الرافعُ يده)[1].

---

[1] - ديوان الأعشى. شرح وتعليق د. محمد حسين. مكتبة الآداب للنشر. الجماميز (ب/ت) ص: 59

[2] - الشعر والشعراء:1/ 71

[3] - انظر: الصناعتين : 321

[4] - شرح المعلقات التسع. أبو عمرو الشيباني. ت/عبد المجيد همّو. مؤسسة الأعلمي للمنشورات. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: 2001م ، ص:25

وقال البغدادي[2]: والشاوي: الَّذِي يشوي اللَّحْم. والمِشَلّ بِكَسْر الْمِيم وَفتح الشين: المسْتَحِثّ والجيّدُ السَّوْقِ، وَقيل: الَّذِي يَشِلُّ اللَّحْمَ فِي السّفود . والشُلشُل بِضَم الشينين كقُنْفُذ: الْخَفِيف الْيَد فِي الْعَمَل والمتحرك. والشَّوِل: بِفَتْح فَكسر، قيل هُوَ الَّذِي عَادَته خِفّة اليد.

وقَالَ الْخَطِيب التبريزي فِي شرح هَذِه القصيدة: المِشلُّ: الخفيفُ. والشُّلْشُلُ: المتحرِّك. والشَّوِل هُوَ الَّذِي يحمل الشَّيْء يُقَال: شلت بِهِ وأشلته، وقيل هو من قولهم فلانٌ يشُولُ في حاجته، أي: يُعنى بها ويتحرّك فيها[3].

ومن هذه الشروح يتضح أنْ ليس ثمة ترادفٌ في هذه الألفاظ، بل إنّ كلّ لفظٍ فيها يحمل دلالة معنويةً غير التي يحملها اللفظ الآخر وإنْ تشابهت الألفاظ وتجانست صوتياً. فهذا (الشاوِي) يتصف بأربع صفات مختلفة، وهي على النحو التالي:

1- المِشَلّ: المُسْتَحِثّ على العمل، أو السريعُ السَوْقِ، وهذه صفة تدلّ على مُجمل السّرعة.

2- الشَّلُول: الخفيف الذي يُسرع في حوائجهم؛ وصفةُ الخِفّة تُساعد على السُّرعة.

3- الشُلْشُل: الذكيّ، أي: الذي يتحرك بخِفّةٍ وسُرعةٍ وذكاء.

4- الشَّوِلُ: الرافِعُ يده لتقديم الشواء؛ أي: الذي تعمل يداه بكلّ ذكاءٍ لتقديم الشِّواء ساخناً.

ولكنّ هذه الألفاظ، في الوقت ذاته، تنضوي تحت حَقْلٍ دلاليّ واحد.

فالبيت إذا حاكمناه بأحكام سيبويه في باب (الاستقامة والإحالة) وأخضعناه إلى قوانين (المعنى النحوي الدلالي) نجده يقع تحت قسم الكلام المستقيم استقامةً نحويةً ودلاليةً؛ أي: الكلام الذي توافقت فيه الوظائف النحوية في علاقتها مع دلالة المفردات التي شغلتها؛ فالأعشى قد صدّر بيته بجملةٍ فعليةٍ استئنافيةٍ مؤكّدةٍ بالحرف (قَدْ) ولا شائبةَ نحوية تشوبُ الإسنادَ الفعليَّ فيها، ولا في تعليق الجارّ والمجرور بفعلها. ثمّ أردفها الشاعر بجملة (يتبعُني) وهي جملةٌ فعليةٌ حاليّةٌ تُبيِّنُ هيئة الشاعر حين ذاك الغُدُوِّ، ويسند الفعل المضارع (يتبعُ) إلى فاعلٍ نكرةٍ هو (شَاوٍ) وهذا التنكير الدالّ على العموم يقود الشاعر إلى وصف هذه النكرة بأربعةِ نعوتٍ في غايةِ الدِّقة والتحديد. ثم إنّ السياقَيْنِ: الزمانيَّ، والمكانيَّ اللذَين حددهما الشاعر، لَهُما في غايةِ الافتقار لأنْ يتصف (الشاوي) بالخِفّة والسرعةِ والذكاءِ مع حركةِ اليدينِ رفعاً ووضعاً.

ولذا يمكننا القول بأنّ ابن قتيبة لم يوفق في الحُكم على هذا البيت بتأخُّرِ معناه وتأخُّر لفظه. وبهذا المطلب الرابع أكون قد أتيتُ على دراسة جميع النماذج التي اخترتها من أضرب الشعر التي ذكرها ابن قتيبة.

الخاتمة:

ونختم هذا البحث بأبرز النتائج، والتوصيات التي توصلنا إليها، وهي على النحو التالي:

1- إنّ سيبويه هو مَن بَذَرَ البِذرةَ الأولى لنظرية (النحو الدلاليّ) .

---

[1] - ما يجوز للشاعر في الضرورة. القزّاز القيرواني. ت/د. رمضان عبد التواب. ود. صلاح الدين الهادي. دار العروبة للنشر. الكويت (ب/ت) ص :136

[2] - انظر: خزانة الأدب. البغدادي. ت/عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط الرابعة،1997م، 319:8

[3] - انظر: شرح القصائد العشر. الخطيب التبريزي. إدارة الطباعة المنيريّة. الطبعة الثانية(1352هـ) ص: 296

2- يُعدُّ (المعنى النحويّ الدلاليّ) مدخلاً موضوعيّاً من مداخل فهم النصوص النثريّة والشعرية وتفسيرها، ومن ثَمّ استنباط الأحكام النقدية حولها.

3- إنّ عبد القاهر الجرجاني هو مَن جعل مِن المعنى النحوي الدلالي المتمثّل في نظرية النظم عنده – مدخلاً أساسيّاً لتذوق النصوص القرآنية ، والنصوص الشعريّة.

4- هناك تقاربٌ كبيرٌ بين فكرة سيبويه في باب (الإحالة والاستقامة) وبين ما ارتكز عليه ابنُ قتيبة من أفكارٍ في ملاحظاته حول اللفظ والمعنى؛ فحُسْنُ اللفظِ أو قبحُه، وجودة المعنى وعدمها، داخل العبارة، تشبه استقامة الكلام وإحالته عند سيبويه.

5- اعتمد ابنُ قتيبة اعتماداً كبيراً على نظرية (النحو الدلالي) في بعض أحكامه النقدية ، وإنْ لم يُبِنْ عن ذلك صراحةً.

6- لم تتعارض أحكام ابنِ قتيبة النقدية مع نظرية (المعنى النحويّ الدلاليّ) فيما أصدره حول ما (حَسُنَ لفظه وجاد معناه) و(ما جاد معناه وقصُرَت ألفاظُه عنه) من الشعر.

7- تعارضت أحكام ابنِ قتيبة النقدية مع نظرية (المعنى النحويّ الدلاليّ) فيما أصدره حول ما (حسن لفظه وخلا من المعنى المفيد) و(ما تأخّرَ معناه وتأخَّرَ لفظُهُ) من الشعر.

وتوصي هذا الدراسة بضرورة الاهتمام بالبحوث الموضوعية التي تركِّز على دراسة الوظائف النحويّة وبيان أدوارها الفعّالة في الكشف عن جماليات النصوص النثرية والشعرية. كما توصي الأكاديميين الذين ينهضون بتدريس علم النحو العربيّ وتعليمه أنْ يُولُوا المعاني النحوية الدلالية اهتماماً كبيراً خلال تنفيذهم لمناهج النحو العربي في الجامعات والمعاهد العليا .

المصادر والمراجع :

1- القرآن الكريم

2- أسرار البلاغة. الجرجاني . عبد القاهر بن عبد الرحمن. بعناية محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة (ب/ت)

3- أمالي المرتضى. الموسويّ. علي بن الحسين. ت/محمد أبو الفضل إبراهيم. م عيسى البابي الحلبي وشكاه الطبعة 1 : 1954م .

4- البيان والتبيين. الجاحظ. أبو عثمان عمرو بن بحر. ت/ عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي.القاهرة.ط7/ 1998م.

5- خزانة الأدب. البغدادي. عبد القادر بن عمر. ت/عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط الرابعة،1997م.

6- الخصائص. ابن جني. أبو الفتح عثمان. ت/ محمد علي النجار. المكتبة العلمية (ب/ت).

7- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. بعناية محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي. القاهرة (ب/ت) ص: 55

8- ديوان الأعشى. ميمون بن قيس. شرح وتعليق د. محمد حسين. مكتبة الآداب للنشر. الجماميز (ب/ت)

9- ديوان الفرزدق. همّام بن غالب. شرح وتقديم أ. علي فاعور. دار الكتب العلمية. بيروت. لبان. ط. اللأولى:1987م

10- ديوان الهذليين . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة . 1965م القسم الأول .

11- شرح القصائد العشر. التبريزي. الخطيب. إدارة الطباعة المنيريّة. الطبعة الثانية(1352هـ)

12- شرح لامية العجم. الدميري. كمال الدين محمد بن موسى. تحقيق د. عويضة. المكتبة الشاملة: 2008م .

13- شرح المعلقات التسع . الشيباني . أبو عمر إسحاق بن مِرار . ت / عبد المجيد همو . مؤسسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى 2001م .

14- الشعر والشعراء .ابن قتيبة .الدينوري عبد الله بن عبد المجيد .ت/أحمد محمد شاكر. دار المعارف.القاهرة . 1958م

15- الصناعتين. العسكريّ. أبوهلال الحسن بن عبد الله. ت/علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب. عيسى البابي وشركاه،1952م .

16- الطِّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. العلوي. يحي بن حمزة. دار الكتب الخديوية. مصر. مطبعة المقتطف، 1914م .

17- عيار الشعر. ابن طباطبا. أبو الحسن محمد بن أحمد. ت/ عباس عبد الستار .دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان .ط الثانية 2005م .

18- الكامل. المبرّد. محمد بن يزيد. ت/عبد الحميد هنداوي. وزارة الأوقاف السعودية. 1998م.

19- الكتاب. سيبويه.عمرو بن عثمان. ت/ عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الثالثة1988م.

20- لباب الآداب.الثعالبي. أبو منصور عبد الملك بن محمد. ت/أحمد حسن بلج. دار الكتب العلمية .بيروت. لبنان. ط الأولى:1997م.

21- ما يجوز للشاعر في الضرورة. القزّاز القيرواني.أبو عبد الله محمد بن جعفر. ت/د. رمضان عبد التواب. ود. صلاح الدين الهادي. دار العروبة للنشر. الكويت (ب/ت)

22- المفضليات. المفضل الضبي. محمد بن يعلى. ت/ الشيخين (أحمد شاكر، وعبد السلام هارون) دار المعارف. القاهرة.(ب/ت)

23- الموشح. المرزباني. محمد بن عمران. ت/محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط الأولى:1995م.

24- النحو والدلالة. د. عبد اللطيف. محمد حماسة. دار الشروق. القاهرة. الطبعة الأولى 2000م.

25- النحو العربي والدرس الحديث. د.الراجحي. عبده الراجحي. دار النهضة العربية. لبنان. بيروت (1979م)

26- وفيات الأعيان. ابن خلكان. أحمد بن محمد. ت/ د. إحسان عباس. دار صادر. بيروت. لبنان.